عم صالح

فى منعرج الحارة ·· ظهرت مقدمة عربة صغيرة ·· الحارة فى حى بولاق العتيق ·· والعربة بيضاء اللون ·· زينت برسوم لأطفال سعداء ·· فى أياديهم أقماع « الجيلاتى » كشموع عيد الميلاد ·· العربة عربة « جيلاتى » ·· خلف العربة ·· عم صالح ·· رجل طلق المحيا ·· يرتدى قميصا وسروالا اختارهما مزدحمان بالنقوش ·· وكأنهما صنعا خصيصا له ·· على رأسه « طرطورا » ·· زاخر بالألوان ·· واللوحة والعربة وصاحبها تكوين بديع ·· والألوان بها زاهية ·· لوحة تجتذب النظـــر ·· وتبعث على الابتسام ·

يدفع عم صـــالح العربة فتستوى فى مقدمة الحارة ·· يتوقف ·· على طبلته المشدودة والمربوطة بكتفه ··تدق أصابعه دقات عالية ميزة ·· راقصـــة ·· تبعا لها ·· يلف رقبته دائريا ·· لتدور الكرة المدلاة فى نهاية الطرطور ·· مشهد جميل ·· عم صالح يطبل ويرقص ·· وأيضا ترتفع عقيرته بالغناء ··

الحارة مثل كل حارة ·· بها أطفال يلعبون ويمرحون ·· الى أسماعهم تأتى دقات الطبلة المحببة اليهم ·· نغمات ساحرة تدق فى عالمهم الجميل ·· تهز أوتار قلوبهم ·· فيدعون ألعابهم وأسباب مرحهم ·· ويهرعون قاصدين عم صالح ·· تسبقهم صيحاتهم السعيدة ·· يلتفون حول عم صـــالح وعربته ·· تمتد أياديهم الصغيرة بقروشهم ·· يأخذ كل قمعه ليلعق منه فى نشوة ·· عم صالح ما زال يغنى ممتدحا بضاعته التى تحلو فى أفواه الصغار ·· ألا يسهر طول الليل ليتقن صنعها ·· وأبدا لا تبرح الابتســـامة وجهه الصبيح ·· مشهد رائع يمتهوى السيدات أيضـــا ·· يتفـــرجن عليـــه من الشرفات والأبواب ·· ويدع على أفواههم ابتسامات عريضة ·

عم صالح ·· فقط يبيع فى تلك الحارة ·· فقد عشـــق أطفالها الذين بادلوه الحب ·· وفيها يجبر بضاعته ·· ويعود الى أسرته وجيوبه ممتلئـة بقروش الأطفـــال المبروكة ·· فيحمد الله على فضله ·

يتكرر ذلك المشـهد كل يوم من أيام الصيف ·· عمل من خلال مرح ·· لا تمله الرؤية ·· تعود عليه ناس الحـــارة ·· وخاصـــة الصغار الذين يعرفهم عم صالح معرفته لأبنـــائه ويحبهم محبته لهم ·· ولا يتوانى فى العطف عليهم فيعطى من لا قرش معه دون أن يجرح مشاعره ·· ويعدها زكاة ماله ··

هذ اليوم ·· تغيبت صفاء ·· اكتشف عم صالح تغيبها من أول وهلة ·· فهى أول من يستفتحه ·· وصفاء لها منزلة كبيرة لديه ·· وكم يعجب بابتسامتها النقية التى تشع فى قلبه الراحة وفى نفسه التفاؤل ·· انتظر وانتظر ·· استشعر قلبه الرهبة ·· وبان الحزن فى نبرات صوته ·· ولم يعد يرقص ولا يغنى وتوقفت

الكرة المدلاة من « الطرطور » .. واستمر يناول الأطفال الحلوى وفى حلقه مرارة .. وعقله شـــاردا .. وانتهت البضاعة بانتهاء الحارة .. وأيضا لم تأت صفاء .. ثم ودع عم صالح الحارة بقلب محزون .. وقد قضى ليلة قلقة مسهدة .

فى اليوم التالى .. أيضا لم تستفتحه صفاء .. لم يطق الصبر .. واستعلم عنها أحـد أقرانها فأجاب أنها مريضة .. وخزه الألم واعتصر قلبه .. وفى التو حجز نصيب صـــفاء من « الجيلاتى » وحين فرغت الحلوى .. لم يعد عم صالح الى بيته .. وانما ركن عربته .. وجمع الأطفال .. واتجهوا جميعا الى منزل صـــفاء .

صعدوا الدرجات حتى شقة صفاء بالدور الثالث .. أتت جلبتهم الى سمع أم صفاء .. كانت فى الردهة فتوقفت وأنصتت .. سمعت نقرات رقيقة على الباب .. تعجبت .. هرولت وفتحت الباب ليزداد عجبها حين رأت عم صالح وركب الأطفال من حوله .. ابتسمت ابتسامة شاحبة .. استغربت حين سأل العجوز عن ابنتها فى حياء .. دعته للدخول .. دخل عم صالح ومن خلفه الصغار وكأنهم باقة من الأزهار .. أصبحوا جميعا حول فراش صفاء النائمة .. أيقظها عم صالح فى رقة .. فتحت صفاء عينيها لترى وجه عم صالح الذى يبتسم فى دلال .. عانقها كما يعانق ابنته .. ابتسمت صفاء .. كانت أولى ابتساماتها منذ أن هاجمها المرض .. فرحت برؤية الأطفال حولها .. أيضا يبتسمون .. اتسعت ابتسامتها فملأت وجهها .. والأم أيضا كانت تبتسم فى تفاؤل .. جو جميل تضفيه أشعة البسمات القلبية الطاهرة .

دار حوار بين صفاء وأصدقائها .. استطاعت أن تجلس .. الحوار طبيعي لطيف .. ضحكت مثلهم .. انشرح صدر الأم حين سمعت ضحكاتها .. التفت اليها عم صالح .. رأى دموع الفرحة على خديها .. وقرأ نظرة امتنان .. سعدت صفاء بنصيبها من « الجيلاتى » وجعلت تلعق فى شوق .

دخل الأب على الصياح والضحكات .. وقف مندهشا .. تلفت ليتيقن أنه فى شقته .. واصل سيره الى مكان الهرج .. اصطدمت عيناه بقمع « الجيلاتى » فى يد ابنته .. كاد أن ينهرها خوفا عليها .. تسمر مكانه .. وقف لسانه حين لمح السعادة تضيء وجه صفاء .. وها هى جالسة فى حيوية وكأنها لم تمرض طوال يومين كاملين .. لم يدر بالابتسامة التى تسربت الى شفتيه .. نظر الى زوجته التى بادلته نفس الابتسامة السعيدة .. ونفس المشاعر .. ولم يدر أيضا كيف اندمج فى مرحهم وفرحهم .

قضى الضيوف ساعة .. مرت كأنها لحظات .. توقف عم صالح ايذانا بالانصراف .. عندئذ وقف الأب .. دس يده فى جيبه .. فهم العجوز أن الأب سينقده أجر شفاء ابنته .. أو .. أو أنه سيعطيه ثمن الجيلاتى ! .. ارتعشت أطراف العجوز .. وارتجفت أهدابه .. وشعر بشيء ثقيل يضغط على قلبه .. مد يده وأمسك بيد الأب قبل أن يخرج شيئا .. نظر الأب الى عينى العجوز .. قرأ فيها معانى كثيرة .. وكلمات :

ـ لقد حصلت على أجرى كاملا .. ألا وهو سعادة هذه الطفلة .. وهذه الأم .. وسعادتك أيها الأب ..

واستطرد عم صالح يقول بعينيه :

ـ لا تضيع هذه المعانى ·· ولتخرج يدك خاوية ·· ولتسلم عـــلى ··

أفاق الأب على يد عم صالح التى تشد على يده فى قوة ··

ودعت الأســرة الضــيوف ·· وكان مع المودعين صــفاء ·· ووعد باللقاء فى الغد القريب ··